هيكل عظمى

لفيلسوف الهند وشاعرها رابندرانات

كان فى الغرفة المجاورة لغرفة نوم الأطفال هيكل عظمى معلق يقرقع حينما تعبث به الريح وفى النهار كنا نسر بالاصطدام به

وكان فى هذا الوقت طالب من مدرسة الطب بكامبيل يعلمنا تشريح العظام لأن أوصياءنا كانوا يزعمون أنهم يتفقهون فى عقولنا العلم التام . ليت شعرى لأى حد نجحوا ؟ ولا حاجة لأن نقول ذلك لمن يعرفنا . والأفضل بلا شك أن نلتزم الصمت أمام من يجهلنا

وقد كرت الأعوام واختفى الهيكل العظمى من الغرفة كما اختفى تشريح العظام من ذاكرتنا دون أن يترك أى أثر

ازدحم منزلنا أخيرا بالمدعوين فاضطررت أن أقضى الليل فى تلك الغرفة التى كان معلقا بها الهيكل العظمى والتى انقضى الزمن الذى كنت آلفها فيه . حاولت النوم بكل وسيلة فلم أستطع ، أخذت أتقلب وأعد دقات ساعة الكنيسة طوال الليل ... طفق مصباحى يختلج لحظة ثم انطفأ ، وقد فقد أمرتنا بعض أعضائها حديثا ، وهذا ما اقتاد فكرى نحو الموت ..

ساءلت نفسى ألا يشبه نور الصباح الذى يتيه فى الظلمات من مسرح الحياة العظيم ضوء حياتنا الضئيلة الذى لا يلبث أن ينطفئ فى كل ساعة من ساعات الليل أو النهار ؟

وانداعى الفكر عاودتنى ذكرى الهيكل العظمى ، وبينا أنا أتصور شكل الجسم الذى كان يكسو تلك العظام ، شعرت أن شخصا يدور حول سريرى يسير متسكعا بجانب الحائط ، ولقد شعرت بتنفسه السريع ، وخيل إلى أنه يبحث عن شئ لا يجده ، ويدور حول الغرفة بخطى سريعة

ولقد خدعت فى الحقيقة من شئ خلقه مخى المضطرب الذى حرم نومه ، وظننت أن وقع الأقدام التى سمعتها ما هو إلا دقات شرايينى فى صدغى ، ورغم ذلك شعرت بارتعاد مثلج .. ولأطرد من مخيلتى هذا الهذيان صحت بأعلى صوتى : « من هناك ؟ » فأحسست بأن الخطى وقفت بجانب سريرى وأجابنى صوت « أنا الطارق وقد أقبلت لأختبر هيكلى العظمى »

ومن السخف أن يظهر الإنسان الفلع والخوف من خيال بسيط ، ثم اكتفيت بأن أضغط على وسادتى وأصيح بلهجة مخالفة للأولى : « إن هذا الشاغل الذى افتادك فى مثل هذه الساعة من الليل لمضحك ؟ وماذا يهمك هذا الهيكل العظمى »

ويظهر أن الجواب انبعث من كاتبى نفسها : « إن عظام هذا الهيكل قد أحاطت قلبى ورأت محاسن شبابى الخلابة فى ربيعها السادس والعشرين ! وكيف أقاوم الرغبة الملحة فى رؤيتها ثانية ؟ »

فقلت له بدورى : « إنها الرغبة شرعية فتمم بحثك واتركنى لشأنى عسانى أجد النوم »

فرد الصوت : « إخالك وحدك وأود أن أجالسك لحظة نتسامر فيها . لقد كان يسرنى أن أساجل الناس الحديث ولكنى لم أنم فى هذه الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة إلا الأنين فوق نيران الموت ، وما أحيل أن أحادث اليوم رجلا مثل العهد السابق »

وقد شعرت أن شخصا أقبل وجلس بجانب سريرى فاستسلمت واستمعت بترددى قائلا :

— ما أعظم ابتهاجى وسرورى للسمر والبحث سويا عن موضوع شائق نتحدث فيه . .

إنى لا أجد موضوعا مسليا أعظم من قصتى الشخصية فهل تسمح لى بسردها ؟

وقد دقت فى هذه الآونة ساعة الكنيسة الثانية صباحا

قال الصوت : « حينما كنت فى عنفوان شبابى وكنت أتمطى بين الأحياء سبب لى أحد الناس فزعا ورعبا يفوقان رعب الموت : ولم يكن ذلك غير زوجى . وإنى لا أحد ما أقارن به شعورى غير السمك المالح فى سن الشص فكأن شخصا

أجنبيا علقني بشعر عنيف وانتزعني من دار طفولتي السعيدة حتى كنت لا أستطيع أن أفكر في الخلاص ، وقد مات زوجي بعد الزفاف بشهرين بينما كان أقاربي وأصدقائي يبكون بكاء مرا لحظي التعس المكدود . وفي ذات يوم قال عمي لخالي بعد ما أطال النظر إلى وجهي : « ألا ترين أن زوج ابننا لها عين سوء صائبة حاسدة ؟ » هل أنت مصغ إلي ؟ وهل يهمك حديثي ؟

— يهمني جدا وإن أوله ليدل على أنه شائق مسل !

— أتم إذن حديثي . وقد عدت إلى بيت أبي بكل سرور . ولو أن البيئة التي كنت فيها ما كانت تشعر بشيء من محاسني.. لكنني كنت واثقة من أنني أحرز جمالا رائعا نادرا . فما رأيك ؟

— هذا شيء معقول جدا ، ولكن لا تنسي أنني لم أرك قط

— قط ؟ وماذا تعمل بهيكلي العظمي ؟ ها ! ها ! هذا لا يهم فإنني أمزح

وكيف أجعلك تتصور أنه كان في هذين التجويفين اللذين تجردا من لحمهما عينان سوداوان يتلألآن بأنواع السحر والفتنة ؟ أو أن الابتسام الذي كان يضيء هاتين الشفتين الورديتين لا يشبه في شيء هيئة الضحك المرعبة التي عرفتها ، وعندما أذكر كل المحاسن والرشاقة ومتانة هاته الانحناءات التي كانت في شرخ الشباب تتفتح كالأزهار فوق هذه العظام النخرة لا أستطيع أن أكتم ابتسامي . وإني لأتألم من ذلك . وهل يستطيع مشاهير العلماء في زمن أن يفرضوا أن عظام جسم مثل هذا تخصص للدراسة تشريح العظام ؟ واعلم أن طبيبا من الشبان المجاورين لنا شبهني بزهرة (الشمبك) الذهبية ؟

حينما أمشي كنت أشعر بأن أقل حركاتي تفجر أمواجا منسجمة تنبعث من كل صوب كالآلاء الماس . كانت تمر على ساعات وأنا أشاهد في يدي اللتين كبلتا برشاقة الرجال الذين يتأججون فيهم نشاطهم

ولكن هذا الهيكل العظمي قد أخفى عنك الحقيقة كشهادة الزور ، فلم يكن في ميسوري أن أدحض تأكيداته الوقحة . أشعر أنني أحب أن أطرد النعاس من عينيك إلى الأبد بأن أستحضر أمامك الصورة الوردية الحية لجمالي بحيث أعود من أمامك كرمة العظام المشؤومة التي تملأ ذهنك

— كنت أستطيع أن أقسم بجسمك إذا كان لم يزل حيا ، ولو أنه لم يترك منه أي أثر من العظام ؟ لكن عقلي اتخذ بالصورة الوضاءة لجمال كامل يظهر بهاءه بقوة التضاد هذا الليل الفاحم الذي يحيط بها ، وإني لا أقدر أن أقول أكثر من هذا

— استمر الصوت في حديثه قائلا : لم تكن لي صاحبات لأن أخي الوحيد صمم على عدم الزواج . كنت وحدي في خدري وقد اعتدت أن أستلقي في الحديقة في ظل شجرة ، وكانت الأحلام تستدرجني في يقظتي حتى خلت أن العالم كله قد شغفه حبي ، وأن الدراري التي ما فتئت مستيقظة على الدوام لتتمثل من نشوة بهائي . إن الصبا لتتنهد حينما تنتحل لها عذراً لتتمسح في بجناحها . وإن داست قدمي صرحاً فإن مجرد اللمس يفقده رشده . وإن فتيان العالم يظهرون أمامي كأنهم أعواد الكلأ تحت قدمي ، ولا أدري لأي سبب يلازمني الحزن والكآبة

وحينما تخرج شيكهار صديق أخي من مدرسة الطب أصبح طبيب أسرتنا ، وقد لمحته مرات مختبئا وراء ستار ، وكان أخي وجلا غريب الأطوار لا يهتم بالنظر إلى العالم الخارجي ، وكان بوده ألا تكون الدنيا مقفرة ويبتعد بالتدريج إلى أن يقبع في ركن مظلم . كان شيكهار صديقه الوحيد الذي أتاحت لي الفرص مقابلته ، وفي بلاط الفتونين يحيى الذي كنت أتخيله في أوقات نزهتي الليلية كان كل شاب مشتت الفكر عند قدمي يستعير وجه شيكهار . هل أنت مصغ إلي ؟ وما قولك في قصتي هذه ؟ »

فأجبت وقد سبقت لساني زفرة :

« وددت لو كنت شيكهار ! »

— انتظر قليلا واسمع أولا لآخر الحديث ، وفي ذات يوم مطير أصابتني الحمى فجاء الطبيب يعودني ، وكانت هذه أول محادثة جرت بيننا . كنت راقدة أمام النافذة وقد لطف ضوء الشمس عند غروبها بياض لوني ، وحينما نظر إلى الطبيب وضعت نفسي مكانه وطفقت أنظر إليه مغرقة في التصور والتأمل ، وشاهدت وجهي الشاحب في ضوء الأصيل موضوعا فوق الوسادة البيضاء كزهرة ذابلة ، وحلقات شعري الحالك تعبث بجبيني

بينا أجفاني مطرقة باستحياء ناشرة ظلا معبرا فوق مقلتي

سأل الطبيب أخي والحياء يلجم لسانه ويخفض من صوته :

« أتسمح لي أن أجس نبضها ؟ »

« أخرجت من تحت الغطاء قبضة مستديرة مدببة ولاحظت حينما تفرست فيها أنها عاطل من سواري الصغير ! » (١)

لم أر في حياتي أجهل من هذا الطبيب في جس النبض . كانت أصابعه ترتعد حينما تمس ذراعي ، فإن قاس درجة الحمى في جسمي فإني شعرت بدقات قلبه وقسها من أصابعه — هل وعيت حديثي ؟

فقلت : بكل سهولة ، إن دقات قلوبنا تعبر عن أفكارنا

— وبعد عدة وعكات وكثير من الشفاء والعافية وجدت أن عدد المفتونين الذي يؤمون بلاط حبي الخيالي آخذ في النقص حتى انتهى إلى فرد واحد ، وفي النهاية استحال عالمي الصغير إلى طبيب ودنفة

وبمناسبة مقاساتي اعتدت أن ألبس سرا خليسانا أصفر وكنت أعقد حول شعري عقداً أبيض من أزهار الياسمين ، ثم أتناول مرآتي وأذهب إلى مكاني الذي ألفته تحت الأشجار

إنك ترى بلا شك أن مشاهدة جمالنا في المرآة يكون على ممر الزمن مملا ؟ ولكن شيئا من ذلك لم يحصل لأني لا أنظر بعيني نفسهما لأني كنت في الوقت نفسه أحد الشخصين ، فكنت أختبر كما يختبر الطبيب ، وكنت أطيل النظر وأفتن وأشتعل بنار الحب . ورغما من انتباهي وحذري أغار أنين على فؤادي وسمع له صوت كنسيم الصبا في الماء

ومن هذا العهد كففت عن الشعور بالوحدة ، وفي أثناء نزهتي كنت أتتبع بنظراتي عبث أصابع رجلي الصغيرة بالرمال الناعمة ، وكنت أسائل نفسي ماذا يكون شعور الدكتور لو كان حاضرا . كنت أمثل الشمس وقت الزوال مغيرة على الزرقاء بدورها الوهاج ، ولم يعكر صفاء السكون غير صياح متقطع

(١) من عادات الهنود أن الأيامى لا يلبسن غير الثياب البيضاء ويكن ما طلقت من الحلي

لنسر بعيد ، وصوت وراء سياج الحديقة لبائع خواتم من البلور وهو ينادي نداء شجيا ! فرشت على الكلأ ملاءة بيضاء لأستلقي عليها وأسندت رأسي إلى ذراعي وأرخت ذراعي الأخرى فوق الملاءة بشكل رشيق ، وقد تخيلت أن شخصا يلحظ لاحظ وضع يدي الشائقة فشد عليها بين يديه ووضع في راحتي قبلة ذهبية وابتعد ببطء . وإن وقفنا الحديث هنا فما رأيك ؟

— « يكاد يكون ختاما مقبولا » وقد أجبتها بلهجة حالم . قالت : وستبقى الصورة ناقصة قليلا ولكنني سأقضي بقية الليل في إصلاح هذا النقص

— ولكنها تكون جافة . وكيف تدخل فيها الضحك ؟ وكيف تصل إلى جعل الهيكل العظمي يضحك ويبكر ملاعبه ؟

— دعني الآن أتم الحديث . وما إن وجد الطبيب بعض المرضى حتى أخذ غرفة أرضية من منزلنا وأعدها لعيادته . وفي هذا الزمن كنت ألهو بسؤاله عن تأثير العقاقير والسموم والكمية الكافية لقتل رجل ، فكانت هذه الأسئلة ملائمة لطبيعته فأجاب عنها بفصاحة ولباقة ، وكان من نتيجة هذه المحادثات أن صارت عندي فكرة الموت مادية لا تثير أي اهتمام ، وبذلك توطن الحب والموت عالمي الباطني . إن حديثي قد قارب النهاية لأننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة

— كما أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الليل

— وقد لاحظت بعد مدة من الزمن قلقا غريبا يساور الطبيب وظهر عليه كأنه يخجل من أمر يريد أن يخفيه عني . وقد حضر مرة بثياب فاخرة وهندام ظريف ليستمير عربة أخي

« كنت فريسة لتطلع شديد فصممت على سؤال أخي ؛ وبعد أن دار بيننا الحديث من الشرق إلى الغرب قلت له : خبرني بالحقيقة يا أخي ، أين يذهب الطبيب الليلة في عربتك ؟

فأجاب أخي باختصار : إلى الموت

— خبرني بكل صراحة أين ذهب . ؟

— « ذهب ليتزوج » وقد أجاب أخي بطريقة أكثر وضوحا

— أحقا ما تقول ؟ وقد نطقت هذه الكلمة مصحوبة

بقهقهة طويلة

وقد علمت فى آخر الأمر أن الخطيبة كانت غنية ورثت ميراثا عظيما سيغدق على الطبيب ثروة طائلة . ولكن لم أهانى باخفائه هذا المشروع ؟ هلا سألته يوما أن لا يتزوج حتى لا يصمى فؤادى ؟ ولكن الرجال لا يؤتمنون . لم أعرف فى حياتى إلا رجلا واحدا ، ولكن لحظة واحدة كانت كافية لكشف الحقيقة

ولما رجع الطبيب من عمله وتهيأ للرحيل قلت له والضحك يغالبنى : « ستتزوج فى هذا المساء أيها الطبيب ؟ »

— إن فرحى قد أبكه بل زاده غيظا وحنقا

— ماذا جرى فانى لا أرى الأور كسترا ؟

— فأجاب بتأوه : هل الزواج حادث مفرح ؟

« عاودنى ضحك عنيف لا يغلب ثم قلت له

لا ! لا ! فذاك من المستحيل أن يعلن زفاف دون أضواء وموسيقى !

ثم ضايقت أخى حتى أعد معدات العرس وجعله يهيجا سارا

ولم أنقطع لحظة عن التندر بالخطيبة وعن الوقائع التى ستمر بها وعن حالتى تلقاء هذه الواردة الجديدة

— خبرنى أيها الطبيب ، هل ستستمر فى جس نبض مرضاك ؟

بخ بخ ! إن عمل العقل الباطن وإن كان غير منظور لاسيما عند الرجال فانى أستطيع أن أؤكد بأن قولى كان على فؤاد محدثى كالحراب الفولاذية

إن الزواج سيشهر بعد قليل فى الليل . وقبل الذهاب شرب الطبيب هو وأخى كأسا من النبيذ كعادتهما اليومية ، وفى هذا الوقت طلع القمر

« ثم تابعت حديثى فائلة والابتسام يملو وجهى : هل نسيت زواجك ؟ قد آن المسير »

وقد فاتنى بعض التفصيل ، فانى قبل هذه المدة قد هرولت إلى العيادة وأخذت منها مسحوقا ورضعته خفية فى كأس الطبيب

لقد شرب الطبيب كأسه بجرعة واحدة ثم قال لى بصوت متهدج من التأثر مصحوب بنظرة اخترقت فؤادى : « سأذهب » صدحت الموسيقى بأنغامها الشجية ، ثم ذهبت إلى خدرى ولبست ثوب الزفاف المنسوج من خيوط الذهب والفضة وتزينت بحلى ووضعت على شعرى العلامة الحمراء التى تميز الزوجة وذهبت إلى الأشجار لأهيئ مضجعى

وكان الليل جميلا وقد ذهبت رياح الجنوب المعشبة بمتاعب الدنيا ؛ وقد تضوع شذا الياسمين والورد حتى غمر البستان البشر والفرح

وكانت أصوات الموسيقى تصل إلى سمعى أضعف مما كانت عليه ، وطفق لألاء القمر آخذا فى النقص ، وانبعث من ذاكرتى الدنيا وصورة بيت الأسرة كأنها وهم تبدد ثم أغمضت عينى وأنا مبتسمة

وقد تخيلت أن الذين سيقبلون لمشاهدة بعض الأخيرة المنطبعة على شفتى كأنها آثار نبيذ وردى ، وأنى سأدخل فى مخدع زفافى الدائم ووجهى مضيء بنفس الابتسامة

وألقاه على مخدع زفافى وثوب عرسى المنسوج من الذهب واللجين ! لأنى حينما استيقظت من قرقعة العظام التى يخيل إلى أنها صادرة من هيكلى العظمى وجدتنى فى حضرة ثلاثة غلمان يتممون تشريح العظام فى هيكلى . وفى هذا الصدر الذى كانت تخفق فيه أفراحى وأتراحى والذى تفتحت فيه وريقات زهرة صباى كان الأستاذ يبين بسبابته عظاما واحدة فواحدة ، هلا وجدت أثرا من هذا الابتسام الذى درسته بكل عناية ؟

وكيف وجدت قصتى ؟

— إنها للذبذة محبوبة .

وفى هذه الفترة ابتدأ يعبق أول غراب

ثم سألت : « هل أنت هنا ؟ »

فلم يرد على أحد

واخترقت أشعة الصباح مخدعى فأضاءته

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الأول من كتاب

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته ثمانمائة صفحة ونيفاً

وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه اربعون قرشاً عدا أجرة البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

قطارات الديزل السريعة

يكرر المدير العام لسكك حديد الحكومة المصرية توجيه النظر إلى أن قطارات الديزل السريعة المؤشر أمامها بحرف « D » بجداول مواعيد الصيف الصادرة في أول مايو سنة ١٩٥٢ والتي كان مؤجلا سيرها عند صدور الجداول يسير منها الآن القطارات الآتية : —

خط مصر — الإسكندرية

١ — قطار ٩٢٥ الذي يغادر مصر في الساعة ٧ر١٥ إلى الإسكندرية
٢ — « ٩٢٧ « « « « ١٢ر١٠ « «
٣ — « ٩٢٩ « « « « ١٧ر٤٥ « «
٤ — « ٩٢٤ « « الإسكندرية « ٧ر٠٠ « مصر
٥ — « ٩٢٦ « « « « ١١ر٣٠ « «
٦ — « ٩٢٨ « « « « ١٧ر١٥ « «

خط مصر — الشلال

١ — قطار ٩٨١ الذي يغادر أسيوط الساعة ٧ر١٠ إلى مصر
٢ — « ٩٨٠ « « مصر « ١٥ر٤٥ « أسيوط

وفقا لمواعيدها المدرجة بالجداول

هذه القطارات مكونة من مركبات درجة أولى مزودة بأجهزة تكييف الهواء ومركبات درجة ثانية ممتازة

مطبعة الرسالة